الوطنية

فى شعر حافظ إبراهيم

١

لا نكاد نمضى فى القرن التاسع عشر حتى نجد مصر تشعر بنفسها شعوراً قوياً ، فهى تعدّ جيشها ، وتمد ذراعها تريد أن تستولى على الشام وبلاد العرب ، وهى ترسل بعوثها إلى أوربا تريد أن تمتلك لنفسها بعض ما هناك من ثروات عقلية وعلمية .

ثم يدور بها الزمن ، ويكون عصر إسماعيل ، وتكثر ديونه ، وتسوء مالية الدولة ، ويرى ذلك المصريون ، فيودون لو غيّروه أو لو غيّر الله ما بنفس إسماعيل ، ولكنه يمضى فى سياسته الطائشة مع بطانته التى كانت تمد له فى أسباب هذه السياسة .

وثارت مصر بقيادة عرابى لأول عهد ابنه توفيق ، تريد أن ترمّ الثغور قبل أن تتسع ، وأن يصبح السلطان لها ولأبنائها . واستعان توفيق فى إخماد هذه الجذوة الوطنية لشعبه وإطفائها بيد الأجنبى ، بل بسيوفه ومدافعه ، فكان الاحتلال الإنجليزى المشئوم .

وداست أقدامُ الإنجليز ثرَى الوطن ، ووطئت أمجاده التاريخية ، واستهانت بكل مقدساته ، واستراح الحاكم الظالم للمحتل ، لأنه مكّن له فى ظلمه ، ولم تسعف الشعب ظروفه ، فطال أمد الاحتلال واندس فى كيان الحكم كله .

والأمة المصرية تئنّ مثقلة به ، وتشكو شكوى تجرى فى عروقها ودمائها ، فهى تذكر تاريخها القديم ، بل تذكر تاريخها فى مفتتح القرن التاسع عشر

حين كانت خيولها تصْهَلُ فى مكة والمدينة وفى الشام ومشارف الأناضول . ثم تذكر ما انتهت إليه من هذا الانهيار ، أو قل من هذا الاحتلال الذى أحال حياتها ظلمات من اليأس والهوان .

وفى هذه الظلمات شَبَّ حافظ إبراهيم لأسرة متوسطة أو دون المتوسطة ، وتآزرت عوامل مختلفة ، لتجعله يشعر بآلام شعبه ، إذ توفى أبوه وهو لا يزال فى الرابعة من عمره ، فكفله خاله ، وأرسل به إلى الكُتَّاب ، ثم إلى المدرسة ، ولم يُظهر التلميذ نبوغاً ، فضاق به خاله الذى انتقل إلى طنطا مهندساً للتنظيم . وعمل حافظ هناك فى مكاتب بعض المحامين ، فكان يكتب لهم ، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها سنة ١٨٩١م ، واشتغل ملازماً فى وزارة الحربية ، ونُقل إلى وزارة الداخلية ، ثم رجع إلى الحربية ، وضُمَّ إلى الحملة الأخيرة على السودان ، وكانت بقيادة اللورد كتشنر . فاشترك فى ثورة عليه مع بعض الضباط ، وحوكم وأُحيل إلى الاستيداع فى سنة ١٩٠٠ ولم يلبث أن طلب إحالته إلى المعاش فى سنة ١٩٠٣ وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، فأجيب إلى طلبه .

وعلى هذا النحو لم يكن حافظ سعيداً فى مولده ولا فى تلمذته ولا فى وظيفته ، بل كان شقياً بذلك كله . فالتأم فى نفسه شقاؤه بشقاء أمته . ورأى من أثر الاحتلال فى خروجه من وظيفته ما وضح له أثره فى أمته ، فهو طريد كتشنر من الجيش ، وأمته طريدة الإنجليز من حقوقها الوطنية وحقائقها الإنسانية .

وكان ، وهو فى السودان ، قد راسل الشيخ محمد عبده شعراً ونثراً ، فلما اعتزل الحكومة التحق بدروسه ومجالسه ، وأخذ يتعرف عن طريقه على الطبقة الممتازة من المصريين ، أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين وحسن عاصم ومحمود سليمان . وكانت بمصر فى ذلك الوقت ثلاث طبقات : طبقة الترك الأرستقراطية ، ثم هذه الطبقة الممتازة من المصريين ، ثم طبقة الشعب . وكان حافظ يختلط بالطبقة الأخيرة بحكم فقره وبؤسه وخروجه منها ، كما كان يختلط بطبقة المصريين الممتازة ، وهى تلك الطبقة التى كانت تفكر فى وطنها وفى الخديو وسلطانه ، وفى الترك واستبدادهم وأرستقراطيتهم ،

كما كانت تفكر فى المحتل الأجنبى وما يذوق المصريون من بطشه ، وامتصاصه لأموالهم ودمائهم ، واغتصابه لديارهم وحرياتهم .

ولم تتسع عند هذه الطبقة النزعة الوطنيةُ فحسب ، تلك التى تجسمت فى مصطفى كامل وصحبه ، بل اتسعت أيضاً نزعات إصلاحية مختلفة ، فقد ذهبت طائفة تفكر فى الإصلاح الدينى ، على نحو ما هو معروف عن الشيخ محمد عبده ودعوته إلى التفكير الحرّ وفَتْح باب الاجتهاد فى مسائل الدين . وفكرت طائفة ثانية فى الإصلاح الاجتماعى على نحو ما هو معروف عن قاسم أمين فى دفاعه عن المرأة وحقوقها ، ودعوته الجريئة إلى السفور ونَبْذ الحجاب . وطائفة ثالثة فكرت فى الإصلاح الخلقى والإصلاح العلمى ، وقد دعا الشيخ على يوسف دعوة حارة إلى أن يكون التعليم فى مراحله المختلفة باللغة العربية ، وتأسست الجامعة المصرية القديمة بفضل قاسم أمين وسعد زغلول وزملائهما .

وكان حافظ يختلف إلى مجالس هذه الطبقة التى لم تَرِث امتيازها فى الحياة المصرية عن طريق آبائها من الترك ، بل استحدثته لنفسها عن طريق علمها وثقافتها وجدها وذكائها ، ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه الطبقة هى التى وضعت أصول نهضتنا الحديثة .

وكانت هذه الطبقة تفسح لحافظ فى مجالسها ، إذ وجدت عنده ما لم تكن تجده عند شوقى معاصره الذى لم يكن من الشعب ، بل كان من طبقة أرستقراطية ، وكان موظفاً فى القَصْر . أما حافظ فكان من الشعب وكان يشعر بكل ما يشعر به ، وكان يطمح إلى ما تطمح إليه طبقة المصريين الممتازة من وجوه إصلاح . وكانت فيه فكاهة حلوة وميل إلى النادرة والدعابة ، وقدرة بديعة على رواية الشعر .

ولهذه الأسباب مجتمعة قَرُب من نفس الشيخ محمد عبده وصحبه الأخيار ، وأخذ يحوِّل لهم بعض ما يسمعه منهم من نقد سياسى أو اجتماعى أو خلقى أو دينى إلى شعر . فكان ينظم أبياتاً تدور فى مجالس القوم ، يتناول بها هذا

الناظر (رئيس الوزارة) أو ذاك ، يصور فيها ما يجيش بأنفسهم ، ويضطرب فى قلوبهم ، ولا يستطيعون أن يذيعوه .

ولم يكن حافظ يختلط بهذه الطبقة من المصريين فحسب ، بل كان يختلط أيضاً بجماعات الشعب الدُّنْيا اختلاطاً لا يقل عمقاً عن اختلاطه بالطبقة الممتازة منه ، فهو يمضى سحابة يومه فى المقاهى بباب الخلق والسيدة زينب وحى الأزهر وميدان إبراهيم ، عاكفاً على « النرجيلة » مختلطًا فى هذه المقاهى جميعاً بالشعراء والأدباء البؤساء أمثال إمام العبد ، وإن ترك المقهى إلى منزله اختلط بالشعب فى طرقاته وفى « الترام » ورأى تحت عينه فقره وبؤسه . ثم ها هوذا شاعر ، ولا يستطيع أن يعيش فى وطنه عيشة كريمة !

وكان الشعراء من قبله ، فى العصور الوسطى ، يعيشون فى كنف الخلفاء والأمراء ، وكان يوجد دائمًا مَنْ يحميهم غوائل الدهر ، أما فى هذا العصر فقد تطورت الحياة ، ولم يعد الشعراء يجدون من يقدم لهم الجوائز السنية على شعرهم ، بل لم يعودوا يجدون من يسدُّ حاجاتهم الضرورية ، واضطُرَّ حافظ وأمثاله أن يُهْرَعُوا إلى بيوت الكبراء ، لعلهم يدعونهم إلى موائدهم ، أو لعلهم يأخذونهم معهم إلى بعض مزارعهم ، ليسلوهم فى قطع أوقاتهم هناك ، وهم إن تكرموا عليهم ومَدّوا أيديهم إليهم لم يعطوهم شيئًا ذا غناء .

ونتج من ذلك أن كان حافظ بائسًا حقًّا ، وكان من طبقة الشعب البائسة فنظم كثيراً فى بؤسه وشقائه وحرمانه . وليس هذا ما يهمنا ، إنما يهمنا أنه شعر بآلام شعبه وهمومه . وكم من بائس لم يعذَّب ببؤسه ، لأنه لم يشعر به ، ولأنه يمضى فيه وكأن على بصره غشاوة ؛ أما حافظ فإن اختلاطه بالطبقة الممتازة من المصريين فتح عينيه على فاجعته لا فى نفسه وحده ، بل فى الشعب كله .

٢

ولعلنا نستطيع الآن أن نفهم كيف كان حافظ شاعر الوطنية المصرية ، فهو يمتزج بالطبقة الممتازة من الشعب التى تشعر شعوراً عميقاً بآلام الأمة ، وتريد أن تُقيلها من عثرتها ، وتنهض بها من كبوتها ، فى السياسة وغير السياسة ، وهو أيضاً يمتزج بالطبقة العامة من الشعب وتقع عيناه على معارض الشعور فيه كل يوم ، وهى معارض زاخرة بالبؤس والتعاسة ، إذ كان هذا الشعب يَرْبِض حينئذ فى أحواض النيل وكأنه يَرْبِض فى الطين .

ولم يلبث حافظ أن استشعر فى أعماقه محنة أمته بالإنجليز وما ينزلونه بها من ضروب العسف والظلم والتنكيل الشديد ، وإنهم ليرمون بأحرارها فى غياهب السجون ، بينما يستنزفون خيرات بلادهم وينهبون أرزاقهم وأرزاق أمتهم نهباً ، فتحوَّل يصليهم بنيران أبياته على شاكلة قوله :

متى أرى النيل لا تحلو مَوارِدُه ... لغير مرتهبٍ لله مُرْتقب
فقد غدتْ مصرُ فى حال إذا ذُكرتْ ... جادتْ جفونى لها باللؤلؤ الرَّطب
كأننى عند ذكرى ما ألمَّ بها ... قَرْمٌ تردَّد بين الموت والهربِ
إذا نطقتُ فقاعُ السجْنُ متَّكأ ... وإن سكتُّ فإن النفسَ لم تطب
أيشتكى الفقر غادينا ورائحُنا ... ونحن نمشى على أرض من الذهب
والقومُ فى مصر كالإسفنج قد ظفرتْ ... بالماء لم يتركوا ضرعاً لمحتَلبِ

فمصر بقرة حلوب والإنجليز يعتصرونها ولا يبقون لأبنائها قطرة تروى ظمأ أو تشفى غليلاً ، وإنما يتركون لهم الفقر والشقاء .

ومن المحقق أن حافظا فى أثناء استيداعه (١٩٠٠ — ١٩٠٣) كان خائفاً من الإنجليز ، وكان لا يزال يترقبهم ولذلك عمد أحياناً إلى مصانعتهم فرثى الملكة فيكتوريا فى سنة ١٩٠١ وهنأ خليفتها إدوارد السابع بتتويجه فى سنة ١٩٠٢

فهو يداورهم ، ويراوغهم ، يجاملهم تارة ، وتارة يحمل عليهم . وما زال فى ذلك حتى غلبت نفسه بالثورة ، فطلب إحالته إلى المعاش وأجيب إلى طلبه ، وأصبح خالصًا لشعبه يصور آلامه وآماله وما يطمع فيه من حياة كريمة شريفة .

وهو فى هذه الفترة الجديدة من حياته (١٩٠٣ — ١٩١١) ينازل المحتل مع شعبه . ولا يتخلف أبداً عن الركب ، فهو دائمًا فى مقدمة الصفوف ، يصرخ فى وجه الإنجليز مع زعماء الشعب وقادته ، وقد شعر فى أعماقه أنه لا بد للأمة من أن تتسلح بالخلق القوى وبالعلم ، فتحوّل شاعراً اجتماعيًّا كما كان شاعراً سياسيًّا ، فهو يثير الشعب ويحفزه إلى النهوض ، وهو يحمل على الامتيازات الأجنبية حملات عنيفة . وكانت الحوادث لا تزال تُذْكى فيه مشاعره الوطنية .

ولم تلبث حادثة دنشواى أن وقعت سنة ١٩٠٦ [١] وذلك أن خمسة من الإنجليز قصدوا إلى هذه البلدة لصيد الحمام ، فتعرض لهم بعض أهلها ، وأصيب ضابط إصابة أدت إلى موته ، فثار اللورد كرومر عميد الإنجليز فى مصر ، وعقد المحكمة المخصوصة برياسة بطرس غالى ، فقضت بإعدام أربعة من أهل دنشواى شنقًا ، وبجلد سبعة بالسياط ، وبحبس ثمانية مدداً مختلفة . ونُفِّذ الإعدام والجلد بمرأى ومسمع من سكان البلدة عقابًا وتنكيلاً ، وغضب المصريون وعلى رأسهم مصطفى كامل لهذه الطريقة الوحشية ، وكتب الكُتّاب فى الصحف ، وامتلأت النوادى بالخطب والأحاديث فى هذه القسوة وتلك الوحشية ، وانطلق حافظ ينشد قصيدته فى تلك الحادثة مستهلاً لها بقوله :

أيُّها القائمون بالأمر فينـــا ... هل نَسيتم ولاءنا والودادا
خفِّضوا جيشكم وناموا هنيئًا ... وابتغوا صَيْدَكم وجوبوا البلادا

---

(١) انظر : (مصطفى كامل) لعبد الرحمن الرافعى طبع مطبعة السعادة ص ١٩٧ وما بعدها .

وإذا أعوزتْكمُ ذاتُ طَوْق بين تلك الرُّبَا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمامُ سواءٌ لم تغادر أطواقُنا الأجيادا

ثم يصف الواقعة ووحشية المحاكمة ، فيقول :

جاء جهَّالُنا بأمر وجئتم ضعفَ ضعفيه قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضَنِنتم بعفو أقِصاصًا أردتمُ أم كِيادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوسا أصبتمُ أم جمادا
ليت شعرى أتلك « محكمةالتَّفْـ تيش»عادت أم عهد«نيرون»عادا
كيف يحلو من القويِّ التشفِّى من ضعيف ألْقَى إليه القِيادا ؟
إنها مُثْلَةٌ تشفّ عن الغيـ ظ ولسنا لغيظكم أنْداَداَ
أكرُمونَا بأرضنا حيث كنتم إنما يُكرم الجوادُ الجوادا

والقصيدة كلها تذهب هذا المذهب من التهكم والسخرية ، محاولا حافظ أن يصور ألم الشعب المصرى لهذا البغى والعدوان على أبنائه ، وكيف ينكل بهم المحتل فى ديارهم مغلظًا فى نكاله . وما يزال يتحدث فى هذه المأساة مجسما بشاعةَ ما كان فيها من شنق وجلد ، ويقول فى قصيدة أخرى مخاطبًا كرومر :

جُلِدُوا ولو مَنَّيْتَهُمْ لتعلَّقوا بحبالِ مَنْ شُنقوا ولم يتهيَّبوا
شُنِقوا ولو مُنِحوا الخيار لأهَّلوا بلظَى سياط الجالدين ورحَّبوا
يتحاسدون على الممات وكأسُه بين الشفاه وطعمُه لا يَعْذُبُ
موتان : هذا عاجلٌ متنمِّرٌ يَرْنُو ، وهذا آجلٌ يترقَّب
طاحوا بأربعةٍ فَأرْدَوْا خامساً هو خير ما يرجو العميدُ ويطلب
حبٌّ يحاول غَرْسَهُ فى أنفس يُجْنَى بمغرسها الثناءُ الطيب
فاجعلْ شعارَك رحمة ومودةً إن القلوب مع المودة تكسَبُ

ونعجب أن يذكر حافظ حب المصريين هنا ، وأن يستعطف كرومر على هذا النحو ، ولكن فى الحقيقة ليس هذا الموقف من كرومر وقومه

موقفه هو ، وإنما كان موقف الطبقة الممتازة من المصريين حينئذ ، فهى تدارى الإنجليز ، تنقدهم ولكن فى دقة وخوف واحتياط ، وكذلك كان حافظ فهو يثور على الإنجليز ، ولكنه لا يبالغ فى ثورته ، بل لا يزال يداور محتاطاً لنفسه خوفاً من سجونهم وكيدهم وما يمكرون .

ومن هنا لا تتفجر نفسه بنبع ثائر ثورة عنيفة ، ومع ذلك فهو أعنف نبع نجده فى هذه الحقبة من تاريخنا ، أى أن عنفه نسبى ، فمن حوله من الشعراء كانوا فى الغالب جاثمين فى أصداف الذل ، وقلما صوروا أنين هذا الشعب وآلامه .

على أن الذنب ليس ذنب حافظ وحده ، بل هو ذنب الشعب وقادته ، ممن كانوا يلاينون الإنجليز . وإننا لنعتقد لو أن الشعب حاول أن يثور ثورة حقيقية ، وأن يرد بغى المعتدى فى نحره ، لوجد شاعرنا أمامه ، ولما تخلف عنه ، بل لبذل روحه مع الباذلين . ولطالما نعى حافظ على الشعب خموده وركوده ، ولقد حاول بكل ما يستطيع أن ينفخ فى شعوره إزاء مأساة دنشواى ، وأن يذكى لهيب الوطنية فيه ، واسمعه يقول فى وداع اللورد كرومر حين استجابت إنجلترا لمشاعر المصريين ، ونقلته من ديارهم :

قتيلُ الشمس أورثَنا حياةً ... وأيقظ هاجعَ القوم الرُّقودِ
فليت (كرومراً) قد دام فينا ... يطوَّق بالسلاسل كلَّ جيدِ
ويتْحفُ مصر آنًا بعد آنٍ ... بمجلودٍ ومقتول شهيـــدِ
لننزعَ هذه الأكفانَ عنا ... ونُبْعَثَ فى العوالم من جديد

فهو يتمنى ساخراً لو دام كرومر فى مصر حتى تتم للشعب يقظته ، وحتى ينفض غبار الاستعمار عن عينيه ، ويحيا حياة كريمة .

وحافظ فى هذه القصيدة كعادته يحاور الإنجليز ويداورهم ، ويحتاط معهم ويشفع السم بالعسل ، كأن يقول فى خطاب السير غورست عميد إنجلترا الجديد :

تدارك أمةً بالشرق أمستْ على الأيام عاثرةَ الجُدودِ
وأيِّدْ مصر والسودان واغْنَمْ ثناء القوم من بيضٍ وسود

فهو يصطنع هذه المداورة قاصداً ، ونحن لا نستطيع أن نقدره قدره الصحيح إلا إذا عرفنا أن بطش الاحتلال كان على أشده ، وأن الإنجليز كانوا يشْهَرُون قانون المطبوعات على رقاب المصريين من زعماء الحزب الوطنى ، وكم أغلقوا من صحف ، وأصلوهم نار بطشهم وظلمهم . واسمعه يقول فى قانون المطبوعات الذى صدر لعهد بطرس غالى ، فكمَّم الأفواه ، وصادر الصحف ، وكاد يقضى قضاء مبرماً على الحريات :

إن البليَّة أن تباع وتُشْتَرَى مصرٌ وما فيها وان لا تَنْطقا
كانتْ تُواسينا على آلامنا صحفٌ إذا نزل البلاء وأطْبَقَا
فإذا دعوتُ الدمعَ فاستعصى بكتْ عنا أسًى حتى تَغَصَّ وتَشْرَقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهما نَرْمى بها وسوابقًا يوم اللِّقا
كانتْ صِماما للنفوس إذا غَلَتْ فيها الهموم وأوشكتْ أن تزهقا
كم نفَّسَتْ عن صدر حرٍّ واجد لولا الصِّمام من الأسى لتمزقا
مالى أنوح على الصحافة جازعًا ماذا ألمَّ بها ؟ وماذا أحْدَقا ؟
قَصُّوا حواشيَها وظنوا أنهم أمنوا صواعقها فكانت أصْعَقا
وأتوا بحاذقهم يكيد لها بما يَثْنى عزائمها فكانت أحْذَقا

ثم يتحول إلى شباب الوادى ، فيثير عواطفه ، ويحمسه ، ويهيب به أن يشق طريقه لا إلى السخط على الأجنبى ، بل إلى الثورة :

أهلاً بنابتة البلاد ومرحبًا جدَّدتم العهد الذى قد أخْلَقَا
لا تيأسوا أن تستردُّوا مجدكم فلربَّ مغلوب هَوَى ثم ارتقى
مَدَّتْ له الآمالُ من أفلاكها خَيْطَ الرجاء إلى العلا فتسلَّقا
فتَجَشَّمُوا للمجد كلَّ عظيمةٍ إنى رأيتُ المجد صعب المرْتَقى

من رام وصل الشمس حاك خيوطها ... سبباً إلى آماله وتعلقا

عار على ابن النيل سبّاق الورى ... مهما تقلب دهره أن يُسبقا

فتدفقوا حججاً وحوطوا نيلكم ... فلكم أفاض عليكمُ وتدفقا

حملوا علينا بالزمان وصرفه ... فتأنقوا فى سلبنا وتأنقا

هزّوا مغاربها فهابتْ بأسهم ... يا ويلكم إن لم تهزوا المشرقا

فتعلموا فالعلمُ مفتاح العلا ... لم يُبقِ باباً للسعادة مغلقا

ثم استمدوا منه كلَّ قواكمُ ... إن القوىَّ بكل أرض يُتقى

وابنوا حوالى حوضكم من يقظةٍ ... سوراً وخطوا من حذارٍ خندقا

وزنوا الكلامَ وسددوه فإنهم ... خبئوا لكم فى كل حرف مزلقا

وامشوا على حذرٍ فإن طريقكم ... وعرٌ أطاف به الهلاكُ وحلقا

نصبوا لكم فيه الفخاخَ وأرصدوا ... للسالكين بكل فجٍّ موبقا

الموتُ فى غشيانه وطروقه ... والموت كل الموت أن لا يُطرقا

فتحينوا فرصَ الحياة كثيرةً ... وتعجلوها بالعزائم والرقى

فحافظ يريد أن يثور بقومه ، حتى ليطلب إليهم الموت ، وأن يغشوا ميادينه ، فالثورة عارمة فى نفسه ، ولكنه لا يلبث أن ينظر حوله فيجد دون ذلك أهوالاً ، فيعود إلى المداورة والمحاورة ، ويطلب إلى الشعب أن يأخذ حقه من الغاصب عن طريق الدهاء والحيلة . وهو يشير فى وضوح إلى وزن الكلام ، وإلى العزائم والرقى . وهذا ما كان يأخذ به نفسه ، وما كان صحفيو عصره وكبار قادته يأخذون به أنفسهم ، فهم يحذرون المستعمر وما له من حول وقوة ، وهم يتأتون له فى كلامهم ، وهو لهم بالمرصاد يبغى أن ينزلقوا أو يزلوا فى أحاديثهم .

وكل ما نريد من تصويرنا لهذا الجانب هو أن يرسب فى نفوسنا أن شاعرنا لم يكن فى مداورته للغاصب خواراً جباناً ، إنما كان مجسداً لجهاد الأمة حينئذ ،

وما كانت تعتمد عليه فى هذا الجهاد من حذر واحتياط ، ولم يتأخر عن الكفاح ولا تخلف عن القادة ، بل ظل معهم تحدوه الوطنية ، ويحدوه الحماس ، حتى إذا نُكبت الأمة بموت زعيمها مصطفى كامل وقف معها يبكيه بكاء حارًّا ، وهو فى هذا البكاء إنما يصور بكاء الشعب الذى يشعر شعوراً عميقاً بمصابه وآلامه يوم موت مجاهده الكبير . وهو من هذه الناحية شاعر شعبه حقًّا ، فقد نبت من تربته الذكية ، ولم تستعر فيه نار عاطفة إلا أضاءت فى شعره ، واسمعه يصور ألم هذا الشعب حين مات مصطفى فى ريعان شبابه ، وآماله منعقدة عليه :

تسعون ألفا حول نعشك خُشَّعٌ ... يمشون تحت لوائك السيَّـــارِ
خَطُّوا بأدمعهم على وجه الثرَى ... للحزن أسْطاراً على أسطار
آنًا يوالون الضجيجَ كأنهم ... رَكبُ الحجيج بكعبة الزوَّار
وتخالهم آنًا لفرط خشوعهم ... عند المصلَّى ينصتون لقارى
غلب الخشوعُ عليهمُ فدموعهم ... تجرى بلا كلَحٍ ولا استنثار
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سيلٍ دافقٍ وشَرار
أسعى فيأخذنى اللهيبُ فأنثنى ... فيصدّنى متدفق التيَّـــار
لو لم ألذْ بالنعش أو بظلاله ... لقضيتُ بين مَراجلٍ وبحار

ولما دار العام دورته أنشد قصيدة فى ذكرى مصطفى الأولى لا تقل عن هذه القصيدة حماسة ووطنية ، وفيها يقول :

قد مرَّ عامٌ بنا والأمر يَحْزُبُنَا ... آنًا وآونةً تنتابنا النُّقَمُ
وللسياسة فينا كلَّ آونة ... لونٌ جديدٌ وعهد ليس يُحْتَرَمُ
بينا نرى جمرها تخشى ملامسةً ... إذا به عند لَمْس المصطفى فَحَمُ
ماذا يريدون ؟ لا قرَّت عيونهم ... إن الكنانة لا يُطْوَى لها علمُ
كم أمة رغبتْ فيها فما رسَخَتْ ... لها — على حَوْلها — فى أرضها قدَمُ
ما كان رَبُّك رب البيت تاركَها ... وهى التى بجبالٍ منه تعتصمُ

وهذا إيمان بالغ بوطنه . ويمثل هذا الشعر أخذ حافظ مكانة رفيعة بين قومه ، إذ وقع لهم على قيثارته أشجانهم ، وكان لا يزال كلما ألم بهم حادث يفزع إلى قيثارته ، يغنيهم همومهم وآلامهم .

٣

وما زال حافظ على هذه الطريقة يحمس أمته ، ويوقد جذوة الوطنية والآمانى القومية فيها ، حتى وظفه فى سنة ١٩١١ أحمد حشمت وزير المعارف حينئذ رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية فأصبح رهين الوظيفة، ولم يعد يترنم بشعره الوطنى إلا فى النادر . وكأنما كانت الوظيفة غُلاً لحافظ ، فأمسك عن الشعر أو كاد ، إلا فى المناسبات العادية .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الوظيفة وما كفلته من رزق ألهته عن قومه ، فلم يعودوا يجدون فيه شاعرهم الوطنى . وقد لاحظنا أنه كان قبل توظفه لا يزال يداور ذوى السلطان ويحاورهم ، حتى لا يمتحنوه ، وحتى لا ينزلوا به غضبهم وبطشهم .

فلما أصبح موظفاً غلبه الخوف ، فكتم مشاعره إلا قليلا . وكأنما أقام على نفسه رقيباً . أو قل إنه أقام رقيباً من عقله على شعره ، فلم يدعه ينفث فى العُقَد الوطنية القديمة حذار ذوى البأس وأصحاب السلطان .

وارجع إلى شعره الذى نظمه فى اللورد كرومر فى أثناء حادثة دنشواى وبعدها ؛ ثم انظر فيما نظمه فى السير مكماهون معتمد بريطانيا سنة ١٩١٥ وكان الإنجليز قد أعلنوا الحماية على مصر ، فستجد الفرق واضحاً بين اللونين من الشعر ، وستجده فى اللون الأول يتحدث باسم وطنه مع الاعتزاز والشعور بالكرامة ، أما فى اللون الثانى فهو مستخز خزياً شديداً حتى لينحرف به القصد، فيقول :

أىْ (مَكْمَهُونُ) قدمْتَ بالـ قصد الحميد وبالرعايهْ
أوضحْ لمصر الفرقَ مـا بين السيادة والحمايـه
ودَعِ الوعـودَ فإنهـا فيما مضى كانت رِوايه
أضحت ربوعُ النيل سَلْـ طنةً وقد كانت ولايه
فتعهَّدوهـا بالصـلا ح وأحْسِنوا فيها الوِصايهْ
أنتم أطبـاءُ الشعو ب وأنبلُ الأقوام غايهْ
أنَّى حللـتم فى البـلا د لكم من الإصلاح آيهْ
رَسخَتْ بنايةُ مجـدكم فوق الرويَّة والهدايَه
وعدلتمُ فلـكمُ الـ دُّنيا وفى العدل الـكفايه
إن تنصروا المستضعَـفـ ين فنحن أضعفهم نِكايهْ
أو تعملوا لصلاحنـا فتداركوه إلى النهايه

وهى عثرة وطنية لا شك ، فيها الخوف الشديد ، أو فيها الموظف الخائف الوجل الذى يخشى إن دعا لشىء من الثورة أو هيج الخواطر أن يُفْصَل ، وأن يُحال بينه وبين وظيفته وما ترفده به من رزق .

فهو الآن له راتب معلوم ، وهو يحافظ على هذا الراتب ، ولعن الله المادة والحاجة ، فإنها هى التى أقصت شاعرنا عن قومه ، فلم يستطع الثبات معهم ولا المضى فى مقاومة العدو الغاصب ومن يعاونونه من المصريين .

ورسفت الأمة فى أغلال الحماية ، وانزوى حافظ طوالها ، فهو لا يستطيع أن يرفع صوته ولا أن يصرخ فى وجه المعتدى إلا أن يستغنى عن راتبه ، وهو لا يستطيع أن يستغنى عنه ، بل ما يزال ينتظره فى أول كل شهر لما كان يرزح تحته فعلا من ضيق وإقلال .

وتضع الحرب أوزارها وتقوم الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ . ويكون طغيان المستعمر وبطشه ، وتقوم المظاهرات ، وتنبعث النار الخامدة فى البركان المنطفئ ،

فيهب الرجال والشباب ، وتنظّم السيدات مظاهرات تحتك بالمحتل وجنوده ، ويرى ذلك حافظ ، فتثور نفسه ، ويقول :

خَرَجَ الغوانى يحْتجِجْ ... نَ ورُحْتُ أرقب جمْعَهُنَّهْ
فإذا بهن تَخِذْنَ من ... سود الثياب شعارَهُنَّهْ
فطلعنَ مثل كواكبٍ ... يَسْطَعْنَ فى وسط الدجنَّهْ
وأخذن يجتزنَ الـطريـ ... ـقَ ودارُ سعد قصدُهُنَّـهْ
يمشين فى كنف الوقـا ... ـر وقد أبَنَّ شُعورهنَّهْ
وإذا بجيشٍ مقبـلٍ ... والخيلُ مطلقةُ الأعنَّـه
وإذا الجنـود سيوفها ... قـد صُوِّبتْ لنحُورهنَّـهْ
وإذا المدافـعُ والبنـا ... دقُ والصوارمُ والأسنَّـهْ
والخيـلُ والفرسانُ قد ... ضربت نطاقًا حولهنَّهْ
والوردُ والريحانُ فى ... ذاك النهـار سلاحهنَّـهْ
فتطاحن الجيشان سا ... عات تشيب لها الأجنَّـهْ
فتضعضعَ النسوان والـ ... ـسوانُ ليس لهنَّ مُنَّـهْ
ثم انهزمْنَ مشتتـا ... ت الشَّمْل نحو قصورهنَّه
فليهْنأ الجيشُ الفخـو ... رُ بنصره وبكسْرهنَّـهْ
فكأنما الألمانُ قـد ... لبسوا البراقع بينهُنَّـهْ
وأتوا « بهنْدنْـبرْجَ » مخـ ... ـتفيًا بمصر يقودهنَّـهْ
فلذاك خافـوا بأسهـ ... ـنَّ وأشفقوا من كيْدهنَّـهْ

وهى قصيدة محمّسة ، فيها حِكَم وسخرية ، وفيها ما يثير الشباب ، ويلهب ثورتهم ، ولذلك وزعوها فى منشوراتهم الوطنية التى كانوا يطبعونها ويذيعونها حينئذ ، ولا تظن أن شاعرنا هو الذى أذاعها ، فإنه كتبها ولم ينسبها إلى نفسه ، ولم يذعها باسمه إلا فى سنة ١٩٢٩ .

وما لبث أن رأى الإنجليز يحنون رءوسهم أمام الثوار المصريين ، وعلى رأسهم سعد زغلول ، فرُدّت إليه شجاعته ، وأخذ يستعيد عاطفته القديمة نحو بلاده ، وعاد إلى صوابه ، فاندلعت النار الوطنية فى فؤاده .

وهكذا هزّت ثورتنا الوطنية نفسه ، وانفلتت أصابعه تتحسس أوتار القيثارة التى كان يوقع عليها شعره الحماسى فى السنوات العشر الأولى من هذا القرن . وكان يرى زميله شوقى يتغنى بتاريخ مصر ، وما سطّره أبناؤها على صفحة الزمن من مفاخر عَنَتْ لها وجوه البشرية .

فامتلأت روح حافظ بحب وطنه ؛ وشعر بمكانته التاريخية ؛ وتحقق لديه أن أبناءه سيفكون عن أعناقه أفعى الاستعمار ، وأنه سينال حريته بعد المناورة والمداورة بل بعد هذه الدماء التى سالت فى ثورته والتى كتبت بحروف من نور حقوقه ، وأعلنتها فى وجه الغاصب المستبد .

على أنه وقف مدة طويلة موقف حذر واحتياط ، فلم تلعب أصابعه على القيثارة توًّا ، بل لعلها قد جمدت أول الأمر ، فإننا لا نجد فى شعره ما يصور الحركة الوطنية حينئذ ، فلا تأليف الوفد المصرى سنة ١٩١٨ ولا مَنْعُ الوفد من السفر إلى مؤتمر الصلح ولا نفْىُ من نفاهم الإنجليز إلى مالطة ، ولا مشروع ملنر ولا الخلاف بين أعضاء الوفد ، لا شىء من ذلك كله يرتسم فى صفحات شعره . ونمضى حتى يُخفق عدلى رئيس الوزارة المصرية فى مفاوضته مع كيرزن Curzon وزير الخارجية البريطانية ، ويقام حفلٌ له بعد استقالته من الوزارة ، فنرى حافظًا ينشد فيه قصيدته التى طارت على كل لسان ، والتى يتغنى فيها بوطنه ، حَفَيًّا به وبأمجاده ، واسمعه يقول على لسانه :

وقفَ الخلقُ ينظرون جميعًا ... كيف أبْنى قواعدَ المجد وحدى
وبناةُ الأهرام فى سالف الده ... ر كَفَوْنى الكلام عند التحدّى
أنا تاجُ العلاء فى مفرق الشَّر ... ق ودُرَّاتُه فرائدُ عقدى
أىُّ شىء فى الغرب قد بَهَرَ النا ... سَ جمالا ولم يكن منه عندى؟

فتُرابى تبرٌ ونهرى فُراتٌ ... وسمائى مصقولةٌ كالفِرِنْدِ
ورجالى لو أنصفوهم لسادوا ... من كهولٍ ملء العيون ومُرْدِ
إنهم كالظُّبا ألحّ عليهـا ... صَدَأُ الدهر من ثَوَاءٍ وغِمْدِ
فإذا صيقلُ القضاء جلاها ... كنّ كالموت ما له من مردّ
أنا إن قدَّر الإلهُ مماتى ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ما رمانى رامٍ وراح سليماً ... من قديم عنايةُ الله جُنْدى
كم بغتْ دولةٌ علىّ وجارتْ ... ثم زالت وتلك عُقبى التعدّى
إننى حُرَّةٌ كسرتُ قيودى ... رغم رُقْبَى العِدا وقطّعتُ قِدّى

واستمر يفخر بمصر القديمة ومآثرها المسطَّرة فى كتاب التاريخ ، واصفاً ما كان بها من علم وحكمة وتشريع ، وكيف لقّنت غيرها من الأمم ، فكانت معلّمة لروما وأثينا . وظل يفخر ببلاده ، مستطرداً إلى تحذير قومه من الغرب وأساليبه الاستعمارية ، وداعيا إلى الوحدة وعدم الفرقة ، حتى يقول :

إننا عند فجرِ ليلٍ طويلٍ ... قد قطعناهُ بين سُهْدٍ ووَجْدِ
غمرتْنا سودُ الأهاويل فيه ... والأمانىُّ بين جَزْرٍ ومَدِ
وتجلّى ضياؤه بعد لأْيٍ ... وهو رمزٌ لعهدىَ المُسْتَرَدِّ
فاستبينوا قصْدَ السبيل وجِدُّوا ... فالمعالى مخطوبةٌ للمُجِدّ

وجدّتْ مصر حتى نالت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذى أعلن انتهاء الحماية البريطانية عليها ، واعترف بها دولة مستقلة ذات سيادة . ولم يُرْضِ هذا التصريح سعدا ، وعارضه من ورائه المصريون ، وبدا الانشقاق واضحاً فى صفوف الأمة ، فهبّ حافظ يقول :

أصبحت لا أدرى على خِبْرةٍ ... أجدّت الأيامُ أم تمزَحُ
أموقفٌ للجِدّ نجتـازُهُ ... أم ذاك للاّهى بنا مَسْرَحُ ؟

ألمحُ لاستقلالنا لمعةً ... فى حالك الشكِّ فأستَرْوِحُ
وتَطْمِسُ الظلمةُ آثارَها ... فأنثنى أُنكر ما ألمَحُ
قد حارتِ الأفهامُ! فى أمرهم ... إن لمحوا بالقصد أو صَرَّحوا
فقائلٌ لا تعجلوا إنكم ... مكانكم بالأمس لم تَبْرَحُوا
وقائلٌ أسرف فى قوله : ... هذا هو استقلالكم فافْرَحوا
إن تسألوا العقل يقُلْ عاهدوا ... واستوثقوا فى عهدكم تربحوا
أو تسألوا القلبَ يقل حاذروا ... وصابروا أعداءكم تُفلحوا
إنى أرى قيْدا فلا تُسلموا ... أيديَكم فالقيدُ لا يُسْجِحُ
إن هيِّئوه من حريرٍ لكم ... فَهْو على لينٍ به أفدَحُ
والرأىُ كلُّ الرأى أن تُجْمِعوا ... فإنما إجماعكم أرْجحُ

وحافظ يبدو فى هذه القصيدة متردداً، فهو لا يقف جهاراً مع سعد زغلول، بل يداور ويحاور، وما يزال يروى الآراء المختلفة ويقصّ وجوه الرأى، كأنه لا يريد أن يتحمل مسئولية ما يقوله، بل ما يزال يتأنى له حتى لا يؤاخَذ به ولا يحاسب عليه، ولا تضيع منه وظيفته ولا راتبه، ويدور العام، ويحتفل بعيد الاستقلال، وينهض حافظ فيقول :

اليوم قَرِّى يا كنانةُ واهْدَئى ... حَرَمُ الكنانة لم يكن بمباحِ
من ذا يُغير على الأسود بغابها ... أومن يعومُ بمَسْبَح التمساح؟

ويذكر ما تهيأ لمصر من أسباب البرلمان، ويدعو إلى الاتحاد، وأن لا يتخاذل المصريون. ويتجه إلى الشباب، فيهنئه بحريته التى رُدَّت إليه، ويدعوه أن يدفع ثمنها من كفاحه وجهاده وتجشُّم الصعاب، حتى تنال أمته ما ينبغى لها من مكانة مرموقة بين الأمم، وتصبح منيعة عزيزة الجانب.

ولا نكاد نجد لحافظ بعد هذه القصيدة شعراً يحمس به الشباب، أو يدفعه

إلى الثورة أو إلى الانضمام إلى حزب دون حزب . ونحن نعرف أن مصر انقسمت إلى حزبين كبيرين : حزب الوفديين برياسة سعد زغلول ، وحزب الأحرار الدستوريين برياسة عدلى يكن . ويظهر أنه رأى لنفسه أن يقف على الحياد ، حتى لا يصطدم بشعره حزب دون آخر ، فيخسر أصدقاءه من هذا الحزب أو ذاك .

وأكبر الظن أن حاجته إلى راتبه هى التى أمسكت بلسانه ، واضطرته إلى أن يكون وسطا ، لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، وكأنه رضى بما نالت بلاده من تصريح ٢٨ فبراير كما رضى لنفسه براتبه الذى كان يتقاضاه فى دار الكتب ، فلم تستبد به ثورتنا الوطنية إلا قليلا ، ولم يتحدث فى السياسة إلا لكى يكسب رضا جميع المواطنين وثناءهم ، وكأنما جَفَّ معين الثورة التى كانت تضطرم فى صدره منذ عشرين عاما أو ثلاثين ، بما سلط عليها من إسار الوظيفة .

والحق أن الشعب نفسه وزعماءه هم الذين ألقوا سلاحهم أخيراً ، فلم يعودوا يناهضون الإنجليز ، وألهتهم الحياة البرلمانية وخلافاتها عن عدوهم المشترك ، وجرى معهم حافظ ، فألقى سلاحه ، ونبذ شعره إلا نادراً وفى المناسبات كأن يموت سعد أو غير سعد .

ونمضى إلى سنة ١٩٣٢ وهى سنة إحالته إلى المعاش ، وكان يحكم إسماعيل صدقى مصرَ حكماً ظالماً جائراً ، ينكل فيه بزعمائها ، ويستعين عليهم برضا الإنجليز عن سياسته الجائرة ، مدعين أنهم يقفون على الحياد ، وهم فى الواقع الذين أقاموه حَرْباً على أمته ، وهَدّاً فى كيانها .

وتعصف الثورة بقلب حافظ ، وبخاصة حين يُخلَعُ عنه غُلّ الوظيفة ، وتعنف العاصفة ، فيؤلف أبياتاً ، وينشرها فى الصحف ساخراً من حياد الإنجليز ، هازئاً باسم الشعب من أحابيلهم ، بل من جنودهم وأساطيلهم ، على نحو ما نرى فى قوله :

حوّلوا النيلَ واحْجُبُوا الضوء عنا ... واطمسوا النجمَ واحْرمونا النسيما
واملئوا البحر إن أردتم سَفينا ... واملئوا الجوَّ إن أردتم رُجوما

وأقيموا للعسف فى كل شبرٍ (كُنْسُتُبْلا) بالسَّوط يفْرى الأديما
إننا لن نحول عن عهد مصر أو ترونا فى التُّرْب عظْما رميما
عاصفٌ صان مُلْكَكم وحماكم وكفاكم بالأمس خطبا جسيما
غال (أرمادةَ) العدوّ فقرتم وبلغتم فى الشرق شأواً عظيما
فعدلتم هُنَيْهةً وبغيتم وتركتم فى النيل عهدا ذميما
فشَهِدْنا ظلماً يقال له العَدْ لُ ووُدًّا يسقى الحميمَ الحميما
فاتقوا غضبةَ العواصف إنى قد رأيت المصير أمسى وَخيما

ونظم قصيدةً تربو على مائة وخمسين بيتا ، يتحدث فيها عن حياد الإنجليز الكاذب وما يسخرون لأغراضهم من « صدقى » وحكمه الجائر ، وصوَّرَ بطشه وخنقه للحريات ، وما صبَّه على مواطنيه من البلاء ، وهو يستهلها بقوله :

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعامُ وابنُ الكنانة فى حِماه يضامُ

وبسط أطماع الإنجليز ومراميهم من حكومة صدقى ، وانصبَّ شُواظ نار عليهم مهدداً متوعداً ، مؤمناً بأمته وزعمائها :

إنا جمعنا للجهاد صفوفَنا سنموت أو نَحْيا ونحن كرامُ

وفيها يقول لصدقى :

يا آلةً للقاسطين ودُمْيَةً فى قَبْضتيْها النقضُ والإبْرامُ
لا همَّ أحْيِ ضميره ليذوقها غُصَصًا وتنسفَ نفسَه الآلامُ

وكأنما رجعت إليه غضبته القديمة فى عنفوان شبابه ، فقد تحول بقلبه إلى وطنه ، وشاركه فى محنته ، وتجسمت خوالجه فى فؤاده ، فتناول قيثارة شعره ، وأوشك أن يزيد فى ألحانها أنغامًا ، وفى أوتارها أوتاراً ، غير أن القدر لم يمهله . وبذلك فقدت مصر صداحها الذى شدا بعواطفها الوطنية فى كثير من الحوادث التى ألمت بها منذ أوائل القرن ، إلى أن لبَّى داعىَ ربّه .